الحجاج في البلاغة العربية بين إنجاز المقاصد وجماليات النص

أ. د. نشأت علي محمود

المدخل:

تعد نظرية الحجاج من أهم النظريات اللغوية الحديثة التي خالفت النظريات اللغوية السائدة في بيان وظيفة اللغة كما خالفت الهذه النظريات في طريقة التعامل مع النص اللغوي، فقد خالفت الأقوال التي ترى أن اللغة ماهي إلا تمثيل وتوصيف للواقع كما هو الحال عند أصحاب النظرية الوصفية للغة، كما خالفت التيار الذي رأى أن وظيفة اللغة الأساس هي التواصل وبث الأفكار بين الناس كما هو الحال عند جاكبسون ومن تبعه، ولأن أكثر النظريات اللغوية الحديثة أو كلها إنما هي نتاج نظريات سبقتها فتضيف عليها أو تتخذ من بعض مقولاتها أساسا لوضع لبنات نظرية لغوية حديثة، وقد دعت نظرية الحجاج إلى قراءة البلاغة قراءة ذاتية لأنها تحقق طبيعة اللغة الذاتية وهي التأثير في المتلقي ولهذا فقد رأى بيرلمان أن((البلاغة ليست لباسا خارجيا للحجاج بل إنها تنتمي إلى بنيته الخاصة))(علوي، ٢٠١٠، ٣٥٢/٢)، بل وسم بيرلمان الخطاب الحجاجي بالخطاب البلاغي وجعله مساويا له، والمساوي يقتضي أن يكون عكسه صحيحا، لأنه فصل الخطاب الحجاجي(البلاغي) عن (الحجاج الأرسطي) وجعله قسيما له، ورأى ماييرأن بيرلمان جعل الحجاج والبلاغة يكمل بعضهما بعضا فـ((لا وجود لحجاج لايكون له أثر بلاغي، فالحجاج والبلاغة عنده يشد بعضهما بعضا))(المرجع المذكور، ٢/ ٣٥٤) وأما ديكرو فقد نظر إلى البلاغة الجديدة على أنها أفضل طريق لتحقيق الحجاج لإن الحجاج عنده هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة ما، وبهذا المفهوم لطبيعة اللغة فقد افترق الحجاج عن الممارسات التأملية في النص لأنه جعل همه الوحيد هو إيجاد الإقناع المؤثر في المتلقي على اعتبار أن اللغة بذاتها موضوعة للتأثير وهو وظيفتها الأساسية، مع أن الأثر الجمالي هو أحد دوافع التأثير والإقناع لدى المتكلم (المرجع المذكور، ٣٥٢/٢)، فالأثر الجمالي لاشك أنه يمثل غرضا مهما في التواصل الفني في الخطاب اللغوي، لأنه يمكن لنا أن نقول إن التواصل الفني يعد حافزا على الإنجاز بما تمتلكه الكلمة أو النص من إيحاء جمالي مؤثر في النفس، ولاشك أن أي تأثير في المتلقي ناشئ عن تقبل النفس للأمر وقناعة العقل به، ونرى أن البلاغة تقصد الإمتاع كما تقصد التأثير، ولاشك أن الإمتاع نظرة بلاغية مقصودة ولهذا قال ماييير((إن الحجاج ذا الآثار البلاغية يرمي إلى الإمتاع والإقناع وإلى حيازة الإذعان))(المرجع المذكور، ٣٥٢/٢)، فقام هذا البحث على بيان ماقامت عليه البلاغة العربية واستيعابها لمقاصد الكلام بأساليبها وفنونها، ولنبين المباحث القيمة التي تتضمنها البلاغة العربية في إنجازها مقصد الحجاج وزيادة من غير إخلال ولاتشويه لمقصد على مقصد.وسسيقوم هذا البحث على عدة محاور وكما يأتي:

المحور الأول-: الحجاج في البلاغة العربية:

تعد البلاغة العربية بلاغة متفردة من سائر بلاغات اللغات الأخرى، ويكفي أن القرآن الكريم الذي مناط إعجازه بلاغته قد نزل بلغة العرب وتعلق إعجازه بالبلاغة الذي وصل إلى منتهاها وغايتها، ومع هذا فلا يكفي الاستدلال الديني على قيمة البلاغة العربية إذ حدثنا أبو حيان التوحيدي فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة في مقابساته العقلية الأدبية عن البلاغة العربية وموقعها من بلاغات اللغات الأخرى فقال ((فقلت لأبي سليمان: فهل بلاغة أحسن من بلاغة العرب؟ فقال: هذا لا يبين لنا إلا بأن نتكلم بجميع اللغات على مهارة وحذق، ثم نضع القسطاس على واحدة واحدة منها حتى نأتي على آخرها وأقصاها ثم نحكم حكما بريئاً من الهوى والتقليد والعصبية والمين، وهذا ما لا يطمع فيه إلا ذو عاهة؟ ولكن قد سمعنا لغات كثيرة من أهلها، أعني من أفاضلهم وبلغائهم، فعلى ما ظهر لنا وخيل إلينا لم نجد لغة كالعربية، وذلك لأنها أوسع مناهج، وألطف مخارج، وأعلى مدارج، وحروفها أتم، وأسماؤها أعظم، ومعانيها أوغل، ومعاريضها أشمل، ولها هذا النحو الذي حصته منها حصة المنطق

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

من العقل، وهذه خصة ما حازتها لغة على ما قرع آذاننا وصحب أذهاننا من كلام أجناس الناس، وعلى ما ترجم لنا أيضاً من ذلك)) (، ٢٠١، ١٩٨).

كما أن البلاغة العربية لم تقم على اجتزاء المفاهيم اللغوية أو توظيف علم من علوم اللغة فيها بأكثر مما يحتمله، فلم تجعل علم الصرف مثلا هو الغالب على غيره من علوم العربية كما لم تجعل علم النحو مغيِّبا لعلوم اللغة الأخرى، بل قامت البلاغة العربية على توزيع وظائف علوم اللغة كلٌّ على وفق مهامه من دون محو لوظائف علم من أجل علم آخر، فقد تضافرت وظائف الصرف والنحو والمعجم والصوت واللغة كلها من أجل بناء علم البلاغة العربية، ولهذا لايمكن أن نعد علم البلاغة العربية قسيما لعلم النحو أو الصرف مثلا، أي لايمكن أن نعدَّ علوم اللغة فنقسمها إلى علم الصرف والنحو والبلاغة والمعجم مثلا، لأن علم البلاغة قد جمع علوم اللغة في انسجام متماسك بحيث يؤدي كل علم دوره على وفق وظائفه، وإذا خطا أي علم من علوم اللغة في بناء النص البلاغي أكثر من حده المطلوب خرج النص عن مقاصد البلاغة وتشوّه تأليفه وابتعدت بصمة البلاغة منه، ولهذا فالصواب هو أن تدرس البلاغة باعتبارها علما يضم علوم اللغة في مجرياتها ومقاصدها، وخير ما يقرب هذا المفهوم معرفة كيفية نشوء علم البلاغة العربية.

الاتجاهات التي ساهمت في تكوين علم البلاغة العربية:

ساهمت أربعة اتجاهات في تكوين علم البلاغة العربية، وهي(د.نشأت محمود، ٢٠١٨، ١٢):

١- البحث في إعجاز القرآن:الذي مثل اللبنة الأساس في بحث فصاحة الكلمة وبلاغة الكلام، وبيان روعة التعبير بكلمة دون أخرى وجملة دون أخرى، ولاسيما بعد استقرار البحث في أن إعجاز القرآن الكريم هو في نظمه، وهذا مانراه في بيان إعجاز القرآن للخطابي والنكت في إعجاز القرآن للرماني وكتاب إعجاز القرآن للباقلاني.ثم تلا هذا مقولات المفسرين وبحوثهم ولاسيما ماجاء في تفسيري الزمخشري والرازي.

٢- البحث في الردود على المشككين والطاعنين في إعجاز القرآن الكريم. مثل بحوث الجاحظ في كتاب الحيوان وأبي عبيدة في مجاز القرآن وابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن، وبحوث القاضي عبد الجبار المعتزلي ولاسيما في كتابيه المغني وتنزيه القرآن عن المطاعن وهذا الثاني قد جرده لبحث الردود على المشككين في بلاغة القرآن الكريم.

٣- اتجاه البحث الأدبي وذلك فيما مثلته بحوث الجاحظ في البيان والتبيين ووماسطره أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين وغيرهما من كتب الأدب.

٤- اتجاه النقد الأدبي:وذلك فيما بحثته هذه الكتب من نقود في الشعر والنثر كان معيارها بلاغيا بالذات مثل كتاب البديع لابن المعتز والشعر والشعراء لابن قتيبة ونقد الشعر لقدامة بن جعفر وعيار الشعر لابن طباطبا والموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي والوساطة بين المتنبي وخصومه لعبد العزيز الجرجاني، إذ كان نقدهم عبارة عن نقود بلاغية سواء على مستوى اللفظ أو المعنى أو المقصد أو السياق وهذا واضح في كتب النقد الأدبي مثل الشعر والشعراء لابن قتيبة والعمدة في محاسن الشعر لابن رشيق وعيار الشعر لابن طباطبا وغيرها.

فاجتمعت هذه الاتجاهات الأربعة في تأسيس علم البلاغة العربية، ولأن هذه الاتجاهات قد تنوعت مباحثها اللغوية إذ تناولت علوم اللغة كلها فقد بنيت البلاغة العربية على على علوم اللغة كلها، وكلٌّ حسب وظيفته، وهذا الأمر نراه واضحا عند النظر في تأسيس المفاهيم البلاغية عند علماء البلاغة، فالبلاغة هي ((مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته)) التفتازاني، ٢٠٠٧/١٧، والكلام لايكون فصيحا حتى يخلص من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد اللفظي والمعنوي (التفتازاني، ٢٠٠٧، ١٦-١٧)، وضعف التأليف راجع إلى النحو وتنافر الكلمات راجع إلى علم الصوت والتعقيد راجع إلى النحو إن كان التعقيد في التأليف أو إلى التلازم العرفي بين المعاني إن كان التعقيد في الانتقال من الملزوم إلى اللازم، ولايكون الكلام فصيحا حتى تكون مفرداته فصيحة لأن الكل يتكون من أجزائه، والكلمة الفصيحة هي الخالية من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس الصرفي، وتنافر الحروف راجع إلى علم الصوت اللغوي مثل تنافر الكلمات والغرابة راجعة إلى العرف الاجتماعي في دلالة الألفاظ واستعمالها ويقصد بمخالفة

القياس الصرفي كما قال التفتازاني ((أن تكون الكلمة على خلاف القانون المستنبط من تتبع لغة العرب في مفردات ألفاظهم)) التفتازاني، ٢٠٠٧، ١٤٣)، وأما علم النحو فبسبب وظيفته التركيبة وقيامه على التأليف بين كلمتين أو أكثر بحيث يكون مفيدا، فقد انتفعت البلاغة منه كثيرا في كل فنونها، لأن علم النحو يعنى بتأليف النص تأليفا مستقيما من حيث البناء التركيبي حسنا من حيث المعنى كما نبه إليه سيبويه حين قسم الكلام إلى مستقيم حسن مثل ذهبت أمس ومحال من حيث التأليف النحوي مثل ذهبت غدا ومستقيم كذب مثل شربت ماء البحر ومستقيم قبيح مثل قد زيدا رأيت ومحال كذب مثل سوف أشرب ماء البحر أمس(سيبويه، ٢٠٠٤، ٢٥/١-٢٦).

المحور الثاني - مقاصد البلاغة العربية:

كما أن البلاغة قامت على مقاصد جمعت وظائف الصرف والنحو والمعجم والصوت وغيرها ولكن البلاغة العربية لم تقم بتجميع وظائف هذه العلوم وتعدادها باعتبار كل صنف منها على حدة، بل قامت على إعادة تشكيل هذه الوظائف وصهرها في مباحثها، وقد قمنا بذكر الوظائف الكلية للبلاغة العربية في بحوث سابقة بعد استقراء كتب البلاغة ولاسيما دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني والمثل السائر لابن الأثير ومفتاح العلوم للسكاكي والإيضاح للخطيب القزويني والمطول للتفتازاني، والوظائف التي استقيناها من مباحث البلاغة العربية هي وظائف كلية فلا مانع من دخول وظائف جزئية في نصوص لغوية بليغة تندرج ضمن هذه الوظائف الكلية ولو بمزيد تلطف، وهذه الوظائف هي:

١- مقصدية الإيضاح والبيان
٢- مقصدية المبالغة
٣- مقصدية الجمال والإثارة
٤- مقصدية الإيجاز
٥- مقصدية الاستدلال

وهذه المقاصد قد تتوارد في النص الواحد بأن يأتي أسلوب يتضمن مقصدين أو أكثر، وسنسم هذا النوع ب(تداخل المقاصد)، وهو كثير في أساليب الكلام بأن تتعدد مقاصد المتكلم حين ينتج نصاً لإفادة المتلقي أكثر من غرض في نص واحد.فمن مقاصد التشبيه مثلا أن يكون للبيان والإيضاح بإخراج المعنى من الخفاء إلى الجلاء كما في التشبيه المستوفي أركانه الأربعة(التشبيه المفصل) كقولهم (ألفاظه كالماء في السلاسة وكالنسيم في الرقة وكالعسل في الحلاوة) (الخطيب القزويني، ١٩٩٩، ٣٥٠) وقد يتداخل مقصد المبالغة مع هذا المقصد كما في التشبيه المكتفي بذكر المشبه والمشبه به(هند بدر)، أو يقترن بالإيضاح مقصد الجمال والإثارة كما في التشبيهات التي يقتنص وجه الشبه فيها بعد طلب وفكر، لأن الشيء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه كان نيله أحلى وموقعه في النفس ألطف وبالمسرة أولى ولهذا ضرب المثل لكل مالطف موقعه ببرد الماء على الظمأ، كما في قول بشار بن برد(الخطيب القزويني، ١٩٩٩، ٤٠٣):

كأنَّ مثارَ النقع فوق رؤوسنا
وأسيافَنا ليل تهاوى كواكبُه

فاقتناص وجه الشبه في التشبيهات المحوجة إلى فكر تصادف نهجاً جمالياً وإثارة فعالة يقصدها المتكلم للتأثير في المتلقي، وإلا فإن المتكلم يستطيع أن يأتي بالمعنى نفسه بوضوح وجلاء لايحتاج إلى فكر.

وسنبحث بإيجاز تجاذب مقصدين من مقاصد البلاغة وعلاقة الحجاج بهما لطبيعة موضوع هذا البحث الذي يحاول أن يبين أن البلاغة العربية تجاوزت بلاغة أرسطو التي بنيت عليها سلبا أو إيجابا مقولات بيرلمان وديكرو وغيرهما بما حملته من أبعاد مقاصدية ضمت تنوعات الشكل والصورة في النصوص اللغوية.

المحور الثالث - الحجاج بين مقصدية الجمال ومقصدية الاستدلال:

هل يمكن أن نعد البلاغة العربية صورة لمقصد الجمال فقط؟؟ أم هل يمكن أن نعد البلاغة العربية صورة لمقصد الاستدلال والإثبات والاحتجاج فقط؟؟.إن هذين السؤالين يثيران في الذهن إشكالية في فهم طريقة بحث البلاغة العربية بل البلاغة مطلقا، لأن حصر البلاغة على أن تكون صورة عكسية للاستدلال كما هو رأي بيرلمان وديكرو يجعل البلاغة محصورة في زاوية ضيقة وإن وسعناها بإنجازاتها التأثيرية كما فعل أصحاب نظرية الحجاج، ولاشك أن الاستدلال مقصد بلاغي مهم، لأن الاستدلال له مقام في الكلام مثل سائر المقامات فكان لابد من معرفة تراكيب الكلام الاستدلالي وخواص هذه التراكيب(السكاكي، ١٩٨٣، /٤٣٢)، بل إن فن البيان (التشبيه والاستعارة والكناية) هو أسلوب استدلالي، وقد ألف

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

السكاكي القسم الرابع من مفتاح العلوم في علم الاستدلال لحاجة علم البلاغة إلى هذا العلم، فلم يكتف بما بحثه من مباحث الاستدلال في فن البيان من علم البلاغة مع أنه قد صرح ((بأن من أتقن أصلا واحدا من علم البيان كأصل التشبيه أو الكناية أو الاستعارة ووقف على كيفية تحصيل المطلوب به أطلعه ذلك على كيفية نظم الدليل)) (السكاكي، ١٩٨٣ /٤٣٥)، . فالتشبيه يتضمن مقصد استدلاليا لأنه مبني على مقدمات موصلة إلى نتيجة يحاول المتكلم أن يقنع بها المخاطب مثل قولنا زينب كالبدر، لنصل إلى نتيجة أن زينب جميلة لأن البدر جميل، والاستعارة تتضمن منزعا استدلاليا لأنها بنت التشبيه، والكناية كذلك لأنها قائمة على التلازم العرفي فذكر الملزوم يوصل إلى اللازم المطلوب إقناع المخاطب به كقولنا استاذ الجامعة يلبس النظارات الطبية غالبا فإنه يلزم منه أنه يقرأ كثيرا، والسكاكي إنما بحث علم الاستدلال وجعله قسما برأسه ليتضح مقام الاستدلال في مجريات علم المعاني(بإثبات المسند للمسند إليه أونفيه عنه) كما هو واضح في علم البيان.

كما أنه لايمكن حصر البلاغة في زاوية الجمال والإثارة الفنية، فلا تقتصر البلاغة على هذا المقصد البلاغي المهم.

ونحن في هذا البحث نريد أن نبين أهمية مقصد الجمال الذي محاه بيرلمان وديكرو من البلاغة وجعلا البلاغة حجاجا، فالبلاغة عندهما هي الحجاج، والحجاج = البلاغة، ونرى أن البلاغة منذ أرسطو قد ضمت وظائف سوى الاستدلال ومنها وظيفة الجمال وذلك فيما بحثه في القسم الثالث من كتاب الخطابة الذي تعرض فيه للسجع وجرس الكلام في الشعر والنثر، ولاشك أن مباحث البلاغة عند أرسطو كانت ضيقة مقارنة مع مباحث البلاغة العربية التي تعاون على نشوئها الاتجاهات الأربعة التي ذكرناها من قبل، ولهذا ظلت مباحث البلاغة في اللغات غير العربية محصورة في بضع فنون هي الحقيقة والمجاز والاستعارة والغلو والتشبيه والمقابلة والإيجاز والإطناب والمساواة وبعض مباحث البديع كالمطابقة والجناس.

وسنذكر هنا إشارات البلاغيين إلى أهمية مقصد الجمال في تحقيق بلاغة النص، بل يمكن أن نقول إن هناك مقصدين كليين يسريان في كل النصوص البليغة ولايمكن أن ينفك عنهما أي نص بليغ بل لايمكن أن تنفك عنهما البلاغة وهما مقصد البيان والإيضاح الذي بني أصل قوام الكلام عليه -لأنه لاكلام من غير بيان حسب التفسير النحوي والبلاغي والأدبي- ومقصد الجمال الذي تقوم الفصاحة(فصاحة المفرد والمركب) في التعبير عن جزء كبير منه.ونلمح معالم الجمال في البحوث البلاغية في اتجاهين:

١- الألفاظ المليحة(الألفاظ المفردة): إن اللفظة المفردة قبل رصفها في الكلام توصف بالجمال وتنعت بنعوت الحسن والبهاء في حالتين:

أ- أن لاتكون غريبة وحشية كما شرط هذا علماء البلاغة عند ذكر شروط فصاحة الكلمة المفردة، فالكلمة غير المأنوسة في المخاطبات المعتد بها في عرف اللغة غير فصيحة ولايصح استعمالها في الكلام الفصيح والبليغ، ويقصد بالغريب في عرف علماء البلاغة((الذي يعاب استعماله مطلقا ويسمى الوحشي الغليظ وهو أن يكون مع كونه غريب الاستعمال ثقيلا على السمع كريها على الذوق) (التفتازاني، ٢٠٠٧، ١٤٢)، ومن هذا الباب أيضا استعمال الألفاظ القذرة في غير موضعها لأن النفس تنقبض من هكذا ألفاظ وتشمئز منها مثل قول أحدهم وقد سئل:كم آخذ من الدواء الذي جئت به؟فقال مقدار بعرة. (العسكري، ٢٠١٣، ٢٣١)، فجاء بلفظ رديء قذر. بل قد تحسن اللفظة في موضع دون أخر، فقد (تَرى الكلمةَ تروقُك وتُؤنسك في موضع، ثم تَراها بعينِها تَثْقُلُ عليكَ وتُوحِشُك في موضعٍ آخرَ كلفظِ "الأَخدع" في بيت الحماسة:

تلفَّتُّ نَحْو الحَيّ حَتّى وجدْتُني
وجِعْتُ من الإصغاء ليتا وأخدعا

وبيت البحتري:

وإني وإن بلغني شرَفَ الغنى
وأَعتقْتَ مِنْ رِقِّ المَطامع أَخْدَعي

فإنَّ لها في هذين المكانَين ما لا يَخْفى مِن الحُسْن، ثم إنّكَ تتأَمُّلها في بيت أبي تمام:

يا دَهْرُ قوِّمْ من اخْدَعَيْكَ فقدْ
أَضْجَجْتَ هذا الأنامَ من خَرُقكْ

فتَجدُ لها مِنَ الثقل على النفس، ومن التبغيض والتكْدير، أضعافَ ما وجدتَ هناك مِنَ الروْح والخفة، ومن الإيناس والبهجة.

ومِنْ أعجبِ ذلك لفظةُ "الشيءِ"، فإنكَ تَراها مقبولة حسنةً في موضعٍ، وضعيفةً

مستكْرَهة في موضع. وإنْ أردْتَ أن تَعْرف ذلك، فانظرْ إلى قولِ عمرَ بن أبي ربيعة المخزومي:

ومن مالئ عينيه مِنْ شيء غيره
إذا راحَ نحو الجمرة البيض كالدمي

وقول أبي حية:

إذا ما تَقاضي المرءَ يومٌ ولَيلةٌ
تَقاضاهُ شيءٌ لا يَملُّ التَّقَاضيا

فإنك تَعرف حُسْنَها ومكانها من القبول، ثم انظر إليها في بيت المتنبي:

لَو الفَلَكُ الدوَّارُ أبغضْتَ سَعْيَهُ
لعوَّقَهُ شيءٌ من الدوران

فإنك تراها تقلُّ وتضَّوّل، بحَسب نُبْلها وحُسْنها فيما تقَدَّم(الجرجاني، ١٩٩٢، ٤٨)

ولابد من تدقيق النظر في عبارات عبد القاهر الجرجاني في التعبير عن تقبل المتلقي أو رفضه لنص المتكلم كقوله فيما تقدم (تثقل عليك وتوحشك، الثقل على النفس، التبغيض والتكدير، مقبولة حسنة، ضعيفة مستكرهة)فهذه الألفاظ والعبارات تعبر عن موافقة المتلقي لخطاب المتكلم أو رده له، فهذه العبارات معطياتها حجاجية استدلالية، وحسن الألفاظ وجمالها في موضعها أثر في قبول المتلقي أو عدم قبوله لخطاب المتكلم.

ب- أن تكون حروفها خفيفة وامتزاجها لطيفا بحيث لايكدّ اللسان في التلفظ بها وهو ماعبّر عنه علماء البلاغة بخلوص الكلمة من تنافر الحروف بحيث تكون ثقيلة على اللسان ويعسر النطق بها(التفتازاني، ٢٠٠٧، ١٤١) بل قد يكون الانتقال من حرف إلى آخر في الكلمة الواحدة كالمشي في القيد لثقله وصعوبة التلفظ به.فسهولة النطق بالحروف ورقتها في اللسان وعذوبتها في السمع لها أثر في قبول المعنى والإذعان له، ثم ألم تستهجن العرب الألفاظ الثقيلة العسرة فعابوا كشكشة تميم وكسكسة بني بكر وطمطمانية حمير وغمغمة قضاعة ولخلخانية أهل العراق، وقد وضع العلوي ضابطا لإعجاب المتلقي له ولاشك أن الإعجاب يتبع القبول أو الموافقة فقال((لابد من مراعاة حسن التأليف مع حسن الأحرف ورقتها فمتى حصل الأمران أعني عذوبة الأحرف ورشاقة تأليفها كان الكلام في غاية الحسن والإعجاب)) (العلوي، ١٩٩٥، ٥٠٤).

٢- النص الجميل (الألفاظ باعتبار تركيبها):فإن للألفاظ عند نسجها أسلوبا وفي مواءمة بعضها مع بعض طريقة فقد يقدم الخبر على المبتدأ وقد يؤخر وقد يقدم الظرف على الفعل وقد يؤخر، فمسالك تأليف النصوص متنوعة وفي حسن التأليف مذاق ليس فيما سواه، وهذا المذاق له تأثير في نفس المتلقي قبولا وإذعانا، فالنفس إذا رأت جمال التأليف انبسطت وإذا انبسطت أقبلت وإذا أقبلت أذعنت من غير حجة ولادليل عقلي فكيف إذا اقترن بجمال النص الدليل العقلي؟؟.وقد حفظ لنا تأريخ الحجاجات والمناظرات ماكان يفعله واصل بن عطاء الذي كان رئيس جماعة ذات معتقد وكان جل شغله هو الاحتجاج على أصحاب الملل والنحل بالخطابات والبيان، وكان واصل ألثغ قبيح اللثغة شنيعها وكان يعلم تأثير جمال اللفظ أو قبحه في تلقي المخاطبين لكلامه إذعانا أو ردّاً، وقد كان الجاحظ يرى أهمية حلاوة اللفظ في قوة الكلام في الحجاج فروى لنا في معرض استدلاله على فكرته حكاية واصل الألثغ في الحجاج فقال((ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ، وإن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه إذا كان داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل، وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال، ومن الخطب الطوال وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وإن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وإن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق، وتزين به المعاني، وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام، واللسان المتمكن والقوة المتصرفة، كنحو ما أعطى الله تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام من التوفيق والتسديد، مع لباس التقوى وطابع النبوة، ومع المحنة والاتساع في المعرفة، ومع هدي النبيين وسمت المرسلين، وما يغشيهم الله به من القبول والمهابة. ولذلك قال بعض شعراء النبي صلّى الله عليه وآله:

لو لم تكن فيه آيات مبينة
كانت بداهته تنبيك بالخبر

ومع ما أعطى الله تبارك وتعالى موسى، عليه السلام، من الحجة

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

البالغة، ومن العلامات الظاهرة، والبرهانات الواضحة، إلى أن حل الله تلك العقدة وأطلق تلك الحبسة، وأسقط تلك المحنة. ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة- رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتى لستره والراحة من هجنته، حتى انتظم له ما حاول، واتسق له ما أمل، ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلا، ولطرافته معلما، لما استجزنا الإقرار به، والتأكيد له. ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة الأكفاء، ومفاوضة الإخوان)) (٣٦/١-٣٧) وقد عبر أبو هلال العسكري عن قوة تأثير جمالية النص في قبول المتلقي وإذعانه فقال((فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة والسلاسة والنصاعة واشتمل على الرونق والطلاوة وسلِم من حيف التأليف وبعُد عن سماحة التركيب وورد على الفهم الثاقب قَبِلَه ولم يَرُدَّه وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجه والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وتقلق من الجاسي(الصلب الغليظ) البشع، وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى مايوافقه وتنفر عما يضاده ويخالفه والعين تألف الحسن وتقذى بالقبيح والأنف يرتاح للطيب وينفر(يغتاظ) للمنتن والفم يلتذ بالحلو ويمج المرّ والسمع يتشوف للصواب الرائع وينزوي عن الجهير الهائل واليد تنعم باللين وتتأذى بالخشن والفهم يأنس من الكلام المعروف ويسكن إلى المألوف ويصغى إلى الصواب ويهرب من المحال وينقبض عن الوخِم ويتأخر عن الجافي الغليظ ولايقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب والروية الفاسدة))(٥٥/٢٠١٣)، وقد صرح العسكري بأن شأن قوة الكلام وبلاغته في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه وكثرة طراوته ومائه بشرط صحة السبك وسلامة التركيب(٢المرجع المذكور)، ونقل أبو هلال العسكري عن بعض أهل البلاغة قوله((رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحها رواية الكلام وحليها الإعراب وبهاؤها تخير الألفاظ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه)) (المصدرالمذكور)، ومدار البلاغة على تحسين اللفظ وتزيينه بعد صحة السبك وسلامة التأليف واستقامته لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، ولايدل حسن الكلام ورونق ألفاظه إلا على بلاغة قائله وقوة منطقه، وقد اطرد في العرف أن اللفظ إذا كان حلوًا عذبًا وسلسًا سهلًا مع صحة المعنى والتأليف دخل في جملة الجيد وجرى مع الرائع، ومتى كان المعنى صوابًا اللفظ باردًا فاترًا كانالكلام مستهجنًا مذمومًا مردودًا غير مقبول (العسكري، ٢٠٠٣، ٥٦)فلا يتسطيع المتكلم التأثير على المتلقي به

٣- تصوير المعنى بصورة جميلة(التشبيه المحمود والمذموم) أو التشبيه العامي: يعد التشبيه أهم فن من فنون علم البيان فهو العين الذي يمد فنون البيان بمعانيه وصوره وهو أوضح طريق في يعرف بمناط الاستدلال والحجاج، وإذا كانت فنون علم البيان (التشبيه والاستعارة والكناية) تعرف بكيفية مساق الدليل لتحصيل المطلوب وتعرف بكيفية نظم الدليل (السكاكي، ٤٣٥/١٩٨٣) فإن فن التشبيه يعد الأصل الأول باعتبار الأصل لفنون علم البيان وباعتبار التعرف على مسالك نظم الدليل ولهذا قال السكاكي في التشبيه مبررا سبق تقدمه على الاستعارة والكناية((فهو الذي إذا مهرت فيه ملكت زمام التدرب في فنون السحر البياني)) (المصدر المذكور/٣٣١)، فمقصد الاستدلال يبرز في التشبيه أكثر لأنه به يحصل انتقال الذهن من الخفي إلى الجلي أو من المعقول إلى المحسوس أو مما يعلم بالفكرة إلى مايعلم بالفطرة أو بإخراج المعنى مما لم يألفه المتلقي إلى مايألفه لأن النفس تميل إلى المألوف وتتقبله(الخطيب القزويني، ١٩٩٩، ٤٠٨)، ولكن قبول التشبيه باعتباره مسلكا استدلاليا لايكون مقبولا عن المتلقي إذا كان الاعتماد على الشكل فقط، لأن المتلقي ينظر إلى الصورة البيانية التي يحملها التشبيه مع الشكل الاستدلالي الذي يتضمنه، ولهذا فقد تعرض علماء البلاغة

لموضوع قبول المتلقي التشبيه ورده له، ولاشك أنهم لايقصدون حصر القبول والرد بجمال الصورة وقبحها ورداءتها بل تكلموا في موضوع القبول والرد مطلقا، فالمتلقي قد لايقبل الاستدلال الذي ذكره المتكلم على طريقة التشبيه وذلك بسبب قبح الصورة وابتذالها الذي أوجب عدم قبول الاستدلال ورده على المتكلم، وللاستدلال هلى هذا نذكرقول السكاكي إذ ذكر ثلاثة شروط لقبول التشبيه واستيفاء مقصده الاستدلالي في تأثيره في المتلقي فقال((وأما كون التشبيه مقبولا فالأصل فيه هو أن يكون الشبه صحيحا.. وأن يكون كاملا في تحصيل ماعلق به من الغرض وأن يكون سليما من الابتذال))(١٩٨٣، ٣٥٢)، والشرط الأول يتعلق بوجه الشبه الذي ينبغي أن يكون مشتركا بين المشبه والمشبه به وأن يكون معقولا غير حسي والشرط الثاني يتعلق بالمقصد العام وهو الغرض الاستدلالي الذي يتضمن أغراضا جزئية ذكرها علماء البلاغة وهي لاتخرج عن المقصد العام والشرط الثالث يتعلق بالصورة الجمالية للتشبيه، فالتشبيه قد يرده المتلقي ويرد الاستدلال به مع تحصيل الشرطين الأولين وذلك إذا فقط الشرط الثالث، فقد يكون سبب رد التشبيه وعدم تأثيره في المتلقي رداءته التصويرية(المصدر المذكور، ٣٥٣)، فالتشبيه يقبح عند المتلقي إذا لم تكن صورته مليحة ولم يكن توصيفه جميلا، فقد ذكر البلاغيون قبح التسبيه الموجب لرده وأرجعوا الأمر إلى وجهين(المصدر المذكور، ٢٢٩):

أ- أن يكون مسار الاستدلال خطأً وطرقة عرض الحجة غلطًا كإخراج الظاهر فيه إلى الخافي والمكشوف إلى المستور والكبير إلى الصغير مع أن الأصل أن يكون الأمر بالعكس، ولعل بحث علماء البلاغة في فصاحة الكلام وشرطهم أن يكون الكلام خاليا من التعقيد يدخل في هذا البحث أيضا، لأن التشبيه إذا تضمن تعقيدا في المعنى بأن تكون صورة التشبيه (صورة القياس)غير واضحة أو أن يكون انتقال الحكم من المشبه به إلى المشبه فيه بعد وغرابة،

ب- أن تكون صورة التشبيه قبيحة ورديئة مع أن من مقاصد التشبيه التزيين والتحسين، ووصفوا هذا النوع من التشبيه بمعيب التشبيه وخطأ التشبيه والتشبيه الكريه المتكلف والتشبيه الرديء اللفظ وبعيد التشبيه والتشبيه البارد والتشبيه المتنافر، ومن ألشواهد التي ذكرها أبو هلال العسكري على هذا النوع:

قول ابن المعتز:

أرى ليلا من الشعر

على شمس من الناس

وأما مقصد الاستدلال الذي نراه في التشبيه فقد أوقى علماء البلاغة العربية غايته حين ذكروا أن المتكلم يأتي بأسلوب التشبيه في مقام الاستدلال حين يريد تحقيق القضية والوصول إلى نتيجتها ثم تأثيرها في المتلقي على سبيل الإذعان والإلزام، فأسلوب الاستدلال بالتشبيه له أربعة طرق يقصدها المتكلم، والعكس صحيح فنقول إن كل طريقة من هذه الطرق الأربعة تحقق التشبيه السليم الصحيح، وهي(العسكري، ٢٠١٣ /٢١٤-٢١٥):

١- أسلوب إخراج مالاتقع عليه الحاسة إلى مايقع عليه، والأمر هنا مرتبط بالحواس والماديات والمشاهدات، كما في قول الله تعالى(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) سورة النور/٣٩. وكقوله تعالى(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ) سورة الأعراف/١٧٦، وهذا النوع من الأساليب يستعمل في الاستدلالات العامة أي مع العوام من الناس، وهو يكثر على ألسنة الناس.

٢- أسلوب إخراج ما لم تجر به العادة إلى ماجرت به العادة، كما في قوله تعالى(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ) سورة يونس/٢٤.

٣- أسلوب إخراج مالايعرف بالبديهة إلى مايعرف بها كقوله تعالى(وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) آل عمران/١٣٣، وكقوله تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) سورة الجمعة /٥.

٤- أسلوب إخراج مالاقوة له في الصفة

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

على ماله قوة فيها كقوله تعالى(وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) سورة الرحمن/٢٤، وهذا الأسلوب يجري في تشبيهات القرآن الكريم بكثرة وهو الغاية في الجودة والنهاية في الحسن لأنه يدعو إلى التفكر والتبصر، ومأأحلى اقتناص المعنى بعد التفكر والتلطف فإن له تأثيرا في نفس المتلقي ولاأجمل.

ولابد من التنبه إلى ماأبدعته البلاغة العربية في التشبيه، فليس الغرض الأوحد من التشبيه هونقل الحكم من المشبه به إلى المشبه (الغرض الحجاجي)مع أنه هو الأغلب في ذكر أسلوب التشبيه لأن الظاهر أن يكون المشبه به أعرف عند المتلقي من المشبه بل يكون موافقا عليه بحكم كلي لأن التشبيه قياس مبطن ولايصح القياس على أمر غير مقبول عند المتلقي، ولكن علماء البلاغة رأوا أن المتكلم قد يورد أسلوب التشبيه لتنبيه المتلقي إلى أمر يرغبه المتكلم ووسمه السكاكي ب(إظهار المطلوب) ولعله إلى أسلوب الكناية أقرب مع عرضه بطريقة التشبيه كما في تشبيه الوجه الجميل الذي هو كالقمر في لإشراقه واستدارته فيقول هو كرغيف الخبز إظهارا للاهتمام بشأن الرغيف كأن يكون المتكلم جائعا ويسعى لتنبيه المتلقي إلى جوعه(السكاكي، ١٩٨٣ /٣٤٥)، وأما التشبيه المقلوب فهو إلى مقصد الاستدلال أقرب بل هو أقوى استدلالا على المقصود لأنه يجعل المشبه به- وهو المشبه في الأصل- كالأصل المتفق عليه فلايصح الرد بل لابد من القبول لأن المعاني إذا وردت على النفس هذا المورد كان لها نوع من القبول عجيب إذ تذعن له إذعانا سلسا.

نتائج البحث:

١- توصل البحث إلى أن نظرية الحجاج قد حجرت واسعا في حصرها البلاغة في الحجاج بل جعل بيرلمان الحجاج مساويا للبلاغة، فالبلاغة أوسع من الحجاج بل تغمره بمفاهيمها ووظيفتها ومتعلقاتها.

٢- البلاغة العربية بلاغة قيمة متفردة من سائر بلاغات اللغات الأخرى كما صرح بهذا أبو حيان التوحيدي في المقابسات بعد اطلاعه على بعض اللغات المشهورة ومأأخذه من علماء اللغات الأخرى.وهذا التفرد تعاون على تكوينه أربعة اتجاهات هي مباحث إعجاز القرآن والتفسير ومباحث الردود على المشككين في بلاغة القرآن ومباحث الأدب ومباحث النقد الأدبي.

٣- وهذا التفرد الذي امتازت به البلاغة العربية نجده في المقاصد التي تضمنتها البلاغة العربية، فالبلاغة العربية أرجعت مقاصد أساليب الكلام إلى خمسة مقاصد كلية، بحيث إن أي أسلوب لابد أن يجري على هذه المقاصد الخمسة وليس معنى هذا أن لكل أسلوب مقصد واحد بل قد يكون لأسلوب واحد أكثر من مقصد وهذا الذي أسميناه بـ(تداخل المقاصد).

٤- تعد مقصدية الجمال مقصدا كليا يندرج تحته مقاصد جزئية ونجد البلاغة العربية قد وضحت أن جمالية النص تتضمن ثلاثة أمور هي جمالية اللفظة المفردة وجمالية التأليف وجمالية الصورة.

٥- التأثير النفسي في المتلقي له أثر في قبول مايتضمنه النص وإذعانه له، ومن المؤثرات التي تدفع المتلقي إلى قبول النص جماليته وحلاوة تركيبه اللفظي والمعنوي، ولهذا فقد تؤثر رداءة الكلمة في النص في قبول المتلقي له، كما قد تؤثر رداءة النص المؤلف وسوء رصفه من حيث التزيين والجمال مع صحته دلالة وسلامته تأليفا في قبول المتلقي له بل يرده فضلا عن عدم إذعانه لتأثير القول أصلا، كما أن الصورة البيانية إن لم تكن جميلة وحسنة ومليحة قد تؤثر في قبول المتلقي للنص.

المصادر والمراجع:

- التفتازاني:سعد الدين، ٢٠٠٧، المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، ط٢، دار الكتب العلمية بيروت
- التوحيدي:أبو حيان علي بن محمد، ٢٠١١، المقابسات، ط١، دار الفرقد، سورية.
- الجاحظ:عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ط٣، مكتبةالخانجي، القاهرة.
- الجرجاني:عبد القاهر، ١٩٩٢، دلائل الإعجاز، ط٣، مطبعة المدني، مصر.
- الخطيب القزويني، محمد بن عبدالرحمن، ١٩٩٩، الإيضاح في علوم البلاغة، ط٣، دار الكتاب المصري، القاهرة
- السكاكي، يوسف بن أبي بكر، ١٩٨٣، مفتاح العلوم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
- سيبويه، عمرو بن عثمان، ٢٠٠٤، الكتاب، ط٤، مكتبة الخانجي القاهرة.
- علوي، الدكتورحافظ اسماعيلي علوي، ٢٠١٠، الحجاج مفهومه ومجالاته-دراسة نظرية تطبيقية في البلاغة الجديدة، ط١، عالم الكتاب الحديث، الأردن.
- العلوي، يحيى بن حمزة، ١٩٩٥، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت
- محمود:الأستاذ الدكتور نشأت علي، ٢٠١٨، في لسانيات البلاغة العربية، ط١، مطبعة روداو، أربيل-العراق.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2